البنيةُ الاجتماعيةُ السرديةُ في روايةِ (ساق البامبو)

د . خليفة أبوبكر عبدالقادر الكندور ـ كلية الآداب والعلوم المرج ـ جامعة بنغازي
د . بسمة يونس غيث ـ كلية الآداب بنغازي ـ جامعة بنغازي

ملخص البحث :

موضوعُ هذا البحثِ دراسةٌ نقديةٌ لإحدى الروايات العربية التي حازتْ على جائزة البوكر ألا وهي روايةُ ساق البامبو للكاتب سعود السنعوسي، التي تستحقُّ أن يطلقَ عليها روايةٌ عالميةٌ، وقد نجمتْ فكرةُ البحث من الرغبة الشديدة من إلقاء نظرةٍ نقديةٍ من خلال المنهج الاجتماعي، وكيف انتقد الكاتبُ مجتمعَهُ من خلال عدة محاور تمثلت في فقدان الهوية والانتماء، ومنع الجنسية لأفرادٍ من المجتمع، تجمعهم روابطُ وعاداتٌ وتقاليدُ وثيقةٌ، ونظرة المجتمع الكويتي للعمّال وربَّات البيوت، وقد حاولنا ترتيب البحث في ثلاثة مباحث، لتشمل الرواية كاملة، وأمَّا عن سبب اختيارنا لهذا الموضوع فهو تحمسّنا الشديدُ لاقتحام عالم الرواية وولوج أعماقها لمعرفة خباياها.

والمصادرُ والمراجعُ على كثرتها لم تعالجْ موضوع دراستنا مباشرة، وإنما مسّته مسّا رقيقا، وليس في هذا غضٌّ من شأن هذه المؤلفات، فهي قد أنارتْ لنا الطريقَ، ومهدت لنا السبيلَ في بعض زوايا البحث.

ويسعى البحث إلى الإجابة عن ثلاثة أسئلة :

ما الذي يرمز إليه الكاتب بعنوان الرواية(ساق البامبو)؟

وما موقف الكاتب من زواج غير المتكافئينِ؟

وما موقفه من قضية البدون؟

التمهيد:

تحتلُّ الروايةُ الأدبيةُ مكانةً بارزةً بين فنونِ الآداب الأخرى، خاصة في وقتنا الحاضر، فقد استطاع كتّابُها أن يستوعبوا مشكلات الحياة والمجتمع وآلام الإنسان المعاصر، حتى أصبحتِ الروايةُ انعكاسًا إيجابيًا للواقع والمجتمع، وكان نتيجةُ ذلك وجود فلسفات ونظريات فرضت نفسها على الموضوع الروائي، ومن هنا فإنّ دراسةَ الرواية والوقوفَ على أهمِّ محتوياتها الفكرية والإنسانية أمرٌ ضروري وغايةٌ تفرض نفسها على الواقع الفكري والأدبي، والرواية تهتم بالإنسان وبقضاياه وأموره الدقيقة.

وتنبعُ أهميةُ الرواية كونها منفذا لكسر التابوهات، إذ أنّ الروايةَ تحتلُّ السيادةَ بين الأجناس الأدبية؛ لأنها بمثابة الكتابة للآخرين وعن الآخرين؛ ولذلك نجد الناسَ(القراء) يقبلون عليها أكثر من غيرها من الأجناس الأدبية الأخرى؛ ونظرا لسيادة الرواية في العصر الحديث على الأجناس الأخرى فإنّ كثيرًا من الشعراء تحوّلوا إلى كتابة الرواية، كما أن الذين تحصّلوا على جائزة نوبل للآداب معظمهم من كتّاب الرواية، كذلك معيار النقد حيث تحوّل الكثيرُ من نقّاد الشعر إلى نقد الرواية.

والرواية قادرةٌ على أن تنفتحَ على العلوم الأخرى مثل الفلسفة وعلم الاجتماع... وهي أقدرُ على تمثيل الواقع المعاش على اختلاف الثقافات، فضلا عن قدرتها على التطور الدائم، وتتميز الرواية بعنصر التشويق، حيث تجعلُ القارئَ يغوص في عالمها، ويعيش في الأحداث بشكل مستمر، والراوي البارع هو من يوهم القارئ بحقيقة معينة، ويبعد أنظارَهُ عن الحقيقة الأصلية، الأمر الذي يجعل القارئ ينصدم بالحقيقة عندما يصل إلى نهاية الرواية، وهذا ما حدث بالفعل لقارئ ساق البامبو.

والحقيقة التي لا مراء فيها أن كاتبَ الرواية بوصفه مبدعًا لابد أن يكونَ مرتبطًا بقرائه المتلقين، معبرا عن قضاياهم التي تهمّهم، مصوِّرا في الوقت نفسه كل ما يدور في المجتمع من أفعالٍ إيجابيةٍ أو سلبيةٍ، ولذلك وجدنا عددًا كبيرًا من كتّاب الرواية اتّجهوا بجزءٍ لا بأسَ به من إبداعاتهم إلى المجتمع، منتقدين إيّاه من بعض جوانبه السلبية، محاولين من وراء ذلك الانتقاد إصلاح ما يمكن إصلاحه، وإضاءة بعض الزوايا المظلمة فيه.

ومن خلال بحثنا عن اللمحات المنتقدة للمجتمع الكويتي، بدا لنا وبصورة واضحة مدى الحرص الكبير الذي شعر به الكاتبُ اتجاه مجتمعِهِ، وإحساسه بالمسؤولية، مستعملا الطريق المباشر، وغير المباشر؛ لتغيير ما يمكن تغييره من الصفات السلبية، والملاحظ أن ما طرحه الكاتبُ في انتقاده لم يخرجْ ـــ في أكثره ـــ عما جاء في ديننا الإسلاميّ الحنيف، إذ لم يتعارضْ ما طرحه مع مبادئ هذا الدين، بل على العكس من ذلك كان معززا له، ومؤكدا في الوقت نفسه الالتزام بتلك المبادئ، في محاولة للعدول عن الأمور الرديئة من خلال إقناع أبناء المجتمع. فروايةُ ساق البامبو مرآةٌ تعكس صورةَ المجتمع بإيجابياته وسلبياته من النواحي كافة، (فالفنُّ لبنةٌ في الصرح الاجتماعي). (ياكبسون ,1988صفحة19)

وليس الأديب(إلا الناطق الفردي بما هو صوت جماعي قبل كل شيء)

(تودوروف, تزفيتان; ,1986صفحة42) فضلا عن أن غايات الرواية يجب أن

تكون في بعض جوانبها (تبليغ التجربة الإنسانية وتوصيلها).

(دور ,1961صفحة11)

فإذا ما علمنا أن رسالة الأديب لقرائه هي (حثّه على الوعي واليقظة والتفكير وتزويده بما يثقف عقله ويدفعه إلى ما ينميه ويرقيه ليكون عضوا نافعا في مجتمع حضاري) (القيسي ,1979صفحة50) ، ومما لا شك فيه استطاع الكاتبُ إقناعَ قرائه بما يمتلكه من أدوات الكتابة الإبداعية فكان تركيزه منصبا على السرد الذي يعتبر المكون الأساسي للإنتاج الإبداعي الروائي، فهو من أهمِّ العناصر التي تعمل على تشكيل وبناء العمل الروائي، ومن خلاله تتجسدُ أطروحاتُ الكاتبِ عبر الشخصيات ومواقفها، وعلاقتها مع باقي عناصر الرواية كالزمن والمكان؛ لتصنع النسيج الأسلوبي. والسنعوسي من بين الكتّاب الذين دخلوا عالم الكتابة وشقّوا لأنفسهم طريقا مبدعا، فقد اتسمتْ أعمالُهُ الروائية بإدراج الأحداثِ المتواليةِ والمواضيع المتنوعة لا سيّما في روايته ساق البامبو، والتي كانتْ محورَ الاهتمامِ والدراسةِ في بحثِنا هذا.

وفي الحقيقةِ قد أصبحتِ الروايةُ المعاصرةُ بحاجة ماسة إلى تقنيات فنية متطورة تجعل منها أعمالا مميزة، لها مكانتها في عالم الكتابة، وهو ما جعل الروائيون يبحثون عن سبل تمكنهم من تفعيل أساليب مقننة في بناء وتشييد المؤلف، من خلال حبك النسيج السردي عبر جموع الأحداث وعلاقاتها (إذ تعدُّ جزءا متميزا من الفعل في الرواية... وسرد قصير يتناول موقفا أو جانبا من موقف، فإذا تجمّعتْ هذه الأحداثُ وتلاحمت أصبحت سلسلةَ أحداثٍ في الحبكة). (ديب ,2010صفحة38) وعلى هذا الأساس فسرد الأحداث في رواية ساق البامبو في بدايتها تختلف عن وسطها ونهايتها، إذ يختلف ويتطور باختلاف موقعه داخل النص.

علاقة المنهج الاجتماعي بالأدب:

إنّ للفنِّ وظيفةً اجتماعيةً، والفنان يعبر ـ واعيا أو غير واع ـ عما يسود مجتمعه وعصره من اتجاهاتٍ ومُثُلٍ وتطلعاتٍ وآمالٍ، والفنان المشبع بأفكار وتجارب عصره قد يدفعه طموحه لا إلى تصوير الواقع وحسب، بل إلى تشكيله وصياغته.

وتعود جذور النقد الاجتماعي إلى أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، وقد تجلت في دراسات أصدرها أدباءُ فرنسيون هاجروا إلى ألمانيا وإنكلترا، وبعد عودتهم إلى البلاد أمثال مدام دستال التي أصدرت في عام 1800م كتاب (عن الأدب من حيث علاقاته بالنظم الاجتماعية) وشاتوبريان الذي أصدر في عام 1802م كتاب (عبقرية المسيحية) وصار الاثنان بداية لجمهرة من النقاد وضعوا المجتمع

نصب أعينهم في دراساتهم النقدية، ثم ارتبط النقد الاجتماعي بدعوات إصلاحية أو ثورية تكون الاشتراكية ـ مهما يكن نوعها ـ مادة خصبة فيها).

(الطاهر ,1979صفحة404)

والمنهج الاجتماعي(يمكن عن طريق تطبيقه تطبيقا واعيا فهم نشأة الظواهر الأدبية المختلفة وتطورها وزوالها، فالأجناس الأدبية مثلا والتطورات التي تلحق بها سواء كانت تطورات جزئية أو شاملة لا يمكن فهمها على أساس أنه يحكمها منطق التطور الداخلي لها فقط، بل لابد من ردِّ هذه التطورات إلى التغيرات الاجتماعية والثقافية التي لحقت بالمجتمع في فترة تاريخية محددة). (يسين ,1970صفحة154)

ولزاما علينا أن نعترف بأنَّ الروايةَ لا يمكن وحدَها أن تغير المجتمع، وتصلح عيوبه، ولكننا نؤمن بأنها ذات تأثير كبير في المجتمع؛ فهي قادرةٌ على إحداث الوعي بمشاكل المجتمع، وتهيئة الناس ودفعهم لتغيير الواقع، ونحن مقِرُّون أيضا بأنه لم يكن لفن الرواية تأثير في حياتنا المضطربة في حين كان لها تأثير كبير في المجتمعات الأجنبية، كما نلمح هذا ـ على سبيل المثال ـ في روايات: كوخ العم توم لهارييت بيتشر شتو، والأم لمكسيم غوركي صمت البحر للكاتب الفرنسي فيركور. فرواية «كوخ العم توم» أشعلت الحرب الأهلية الأمريكية(1861-1865م)، وساهمت في تغيير نظرة الإنسان إلى أخيه الإنسان، ودفعت حركة تحرير الرق إلى الأمام حتى تكللت بإلغاء العبودية في عهد الرئيس أبراهام لنكولن عام 1863م. أما رواية الأم ففضحت ظلم الحكم القيصري وفساده في روسيا، ومهدت لقيام الثورة البلشفية عام 1917، أما رواية صمت البحر فكانت أداة في أيدي الفرنسيين لمقاومة المستعمر النازي عام 1942م. (أهمية الرواية ,2012صفحة11)

إننا لا نستطيع أن نُحمّل أي سلطة سواء السلطة السياسية أم الاجتماعية، أم الدينية كل المسؤولية عن ضعف تأثير الرواية في الواقع العربي؛ فللرواية، مثل غيرها من الفنون، وسائل تستطيع بها أن تشقَّ أي عقبات تعترض طريقها. هذا ما فعله الروائيون في التمهيد للثورات الفرنسية والبلشفية، ودفع الناس إلى مقاومة النازية في الحرب العالمية الثانية.

أَمَا آنَ للروايةِ العربيةِ أنْ تقومَ مقامَ الشعرِ الذي كان يُحرّك الناسَ، ويدفعهم إلى مواجهة أعداء الأمة، وإشاعة روح التفاؤل والأمل في نفوس الناس، كما ظهر في شعر حافظ، وشوقي، وأبي القاسم الشابي، ثم من بعدهم إبراهيم طوقان، وغيرهم. أَمَا آنَ للرواية أن تكون وفيةً للواقع الذي تعايشه أمتنا العربية، فتبني واقعًا جماليًّا تسوده العدالة، والسكينة،

والأمن، وتتحقق فيه قيم الحق والخير والجمال، وأن تسعى إلى التأثير في المجتمع، وشحذ همم الناس، وإنارة الطريق أمامهم، ودفعهم لبناء واقع جديد يخلو من الفساد، والتوجهات الأنانية، والاصطفافات الطائفية، والمذهبية القاتلة.

تعريف بالرواية:

صدرتِ الروايةُ عن الدار العربية للعلوم والناشرين 2013م وجاءت في ثلاثمئة وست وتسعين صفحة، موزعة على ستة فصول متفاوتة الحجم، كل جزء مقسم إلى مشاهد مرقمة، ابتداءً من واحد، وهذه الأجزاء هي :

الجزء الأول: عيسى قبل الميلاد.

الجزء الثاني: عيسى بعد الميلاد.

الجزء الثالث: عيسى التيه الأول.

الجزء الرابع: عيسى التيه الثاني.

الجزء الخامس: عيسى على هامش الوطن.

الجزء السادس: عيسى إلى الوراء يلتفت.

عنوان الرواية:

يشتغل الروائي زمنا طويلا بكتابة روايته، قد يمتد إلى سنوات وشواهد ذلك عربيا وعالميا كثيرة، ويظن القارئ أن العنوان مبدئيا لا يكلّفُ وقتا سوى أن يترجم الكاتبُ عنوانَ روايتِهِ في لحظةٍ سريعةٍ من دون أن يعرفَ أنه إشكاليةٌ مريرةٌ يعاني منها الجميعُ، فالعنوانُ بوصفه العتبة الأولى للقراءة يجب أن يكونَ متضامنًا مع المادة السردية لا مفسرًا لها، وإنّما في الأقل أن يكونَ ثريًا للنصِّ السردي يضيءُ العتبة وما يجاورها من متنٍ عامٍّ، أو يتقدم كنص مكثف يختزل العمل الروائي بأكثر من طريقة.

والعنوان لا يثبت على حال، فهو يتغير مع تغير مسارات السرد، وبالفعل هو قصةٌ شائكةٌ ومعقدةٌ إلى حدٍّ كبيرٍ، فإذا عددنا العنوان مرشدا للنصِّ ودليلا له، فهل هذا يكفي أن يضعَ الكاتبُ مفاتيحَ روايته في العنوان أم أن العنوان نصٌّ موحٍ موازٍ للمتن مكثف بدلالته وتأويلاته أم هو إشارة أولى إلى النصِّ الكلي ومفتاح من مفاتيح القراءة؟.

وقد احتفتِ الدراساتُ الغربيةُ بدراسة النص الموازي في الوقت الذي أغفلته الدراساتُ النقديةُ الحديثة العربية، ومن أهمِّ النقاد والدارسين الغربيين الذين احتفوا بهذا المجال النقدي الهام، الناقد الفرنسي جيرار جنيت، ففي كتابه (عتبات) فكك النصِّ الموازي إلى: النص المحيط، والنص الفوقي، فقد جعل العنوان في مقدمة فضاء المحيط.

إذن فالعنوان من أهمِّ العناصر المكونة للمؤلف الأدبي، وهو سلطةُّ النصِّ وواجهته الإعلامية، وهو الجزءُ الدالُّ منه، يساهم في تفسيره وفك غموضه، لذا عني المؤلف بعنونة نصوصه؛ لأنه مفتاح إجرائي به تفتتح مغالق النص سيمائيا. (حمداوي, 1997صفحة107)

وأيًا كان الأمر فالمؤلف لا يضع عنوانَهُ اعتباطا، بل يتقصّدُ من ورائه مزيدا من الدلالات والإضاءات التي تساهم في فك رموز نصِّهِ سواء كان ذلك في صياغته وتركيبه أم في دلالته وتعالقه بالنص اللاحق.

فَلِمَ ساق البامبو؟ وما علاقة العنوان بالرواية؟

رُبَّ سائلٍ يسألُ ما معنى ساق البامبو؟ هو النبات الذي ينبت دونما حاجة لجذور، واسمه في العربية الخيزران، وفي الفلبين اسمه كاوايان، وفي أماكن أخرى يسمى البامبو. أما علاقته بعنوان الرواية ففي الحقيقة ناسب العنوان بطل روايتنا، فالتشابهُ واضحٌ بين العنوان وهوزيه الفلبيني، أو عيسى الكويتي، فلنقرأْ هذا المقطع الذي ورد في الرواية على لسان عيسى(لماذا كان جلوسي تحت الشجرة يزعج أمي؟ أتراها كانت تخشى أن تنبت لي جذور تضرب في عمق الأرض ما يجعل عودتي إلى بلاد أبي أمرا مستحيلا؟ ربما، ولكن حتى الجذور لا تعني شيئا أحيانا، لو كنت مثل شجرة البامبو لا انتماء لها، نقتطع جزءا من ساقها نغرسه بلا جذور في أي أرض لا يلبث الساق طويلا حتى تنبت له جذور جديدة... تنمو من جديد في أرض جديدة، بلا ماض، بلا ذاكرة، لا يلتفت إلى اختلاف الناس حول تسميته) (السنعوسي, 2012صفحة94)

ونبات البامبو هو وصف دقيق لهوية عيسى وانتمائه، فعيسى لديه شعور كبير بعدم الانتماء لأيّ هوية أو جنسية، كما هو الحال لنبات البامبو الذي لا انتماء له، فأينما زرعْتَ الجذرَ ينبت وينمو.

تسير الرواية وفق ما رسم لها الكاتب حيث تتجلى المشكلات الاجتماعية من خلال دور المجتمع، ودور الأسرة، من ناحية التربية في تشكيل نفسية وشخصية أبنائها، فتناقض مشاعر الأبناء يستمد من تناقض المجتمع أمام قضايا خاصة، فسلوك أبناء الطاروف أبطال الرواية ناجمٌ عن عدم الوضوح الذي تعانيه الأسرةُ من تسلّطِ الأمِّ، فالكاتبُ يدعو إلى تعليم المرأة وحقّها في التعبير والحرية لتكونَ عنصرا فاعلا في المجتمع وفي تطويره وفي ملءِ النقص البشري والفكري، لكنه يحملُ أفكارا سيئةً عن الغشِّ والنوايا الأخلاقية. فقد توارثها المجتمعُ، وأنتجتها ظروفٌ عصيبةٌ من غزو وعولمةٍ. وهذا

التناقضُ له تأثيره على دور المرأة، فالكاتبُ لاحظَ حين سبر أغوار علاقتين للحب في روايته، فراشد ابن الطاروف الذي أحب خادمة وتزوج بها، وغسّان البدوني وهند ابنة الطاروف، في زمن حيث لا تستطيعُ المرأةُ البوحَ بحبها أو الاعتراف بمشاعرها الفردية الخاصة، وإن كان لها الحق في التعلم والعمل ومخالطة الرجال، وكأن المرأة في نظر المجتمع مجرد شهوة ومصدر للغواية، وهذا التناقض يحدُّ من دور المرأة في المجتمع.

ومما لا جدالَ فيه أن الكاتبَ رسمَ لنا خطوطَ روايتِهِ التي لا تخرج عن ثلاثةِ محاور أساسية، تمثلتْ هذه الخطوطُ في الآتي:

كويتي بملامح فلبينية (أزمة انتماء)

حقوق البدون (أزمة هوية)

حقوق العمال الأجانب.

المبحث الأول ـ كويتي بملامح فلبينية (أزمة انتماء) :

يحملُ عيسى اسمًا مشرفًا لدى عائلة الطاروف، ولكن يملكُ وجهًا فلبّيًا يجلبُ لهم العارَ، تتجاوز رواية ساق البامبو النزاع بين الشرق والغرب، وتقدم نظرة ضرورية للغاية وعصرية إلى حركةِ الهجرةِ الجديدة نسبيًا من الفلبين إلى الكويت. قدّم الكاتبُ جوانبَ سلبيةً معتمةً مظلمةً في مجتمعه، باعتبار أنّ شخصيةَ بطلِ الرواية ضحيةُ نظامٍ اجتماعيّ بُنِي على الطبقات، والسؤال الذي يفرض نفسه منا هو، ماذا لو كانتْ ملامحُ عيسى غيرَ ملامحِ فلبينية؟، فلو كانت ملامحُهُ أوربيةً أو عربيةً، أو غيرها من الملامح التي ليستْ من الملامحِ الآسيويةِ التي تعمل خدمًا عند الخليجين عامة والكويت خاصة. ماذا ستقول جدتي غنيمة لو رأتني بملامح أوربيةٍ؟، كانت تغضب قليلا، ولكنها سوف تقبلني حفيدًا شرعيًا من ابنِها الوحيدِ راشد.

إن روايةَ ساق البامبو تركزُ التركيزَ كلَّهُ عن الانتماءِ والهويةِ الجنسيةِ، حيث تدورُ أحداثُهَا بين بلدين الكويت والفلبين، في رحلة يبحث فيها أبطالُهَا عن الذات، فشخصيةُ هوزيه الفلبيني أو عيسى الطاروف الذي ولدَ عن طريق زواجٍ شرعيّ موثقٍّ في الدوائر الحكومية الكويتية، زواجٌ بين راشد الطاروف والعاملة التي تعمل عندهم في بيتهم خادمةً واسمها جوزافين التي كانت على الديانة النصرانية، هذا الزواج الشرعي لم يلقَ الموافقةَ من قبل أسرة الطاروف، وقد نتجَ عن هذا الزواج ولادة ابنهم عيسى أو هوزيه، فلم يستحملْ راشدٌ المواجهةَ الصعبةَ بينه وبين أمِّه غنيمة التي طردته من البيت ومنعت عنه المصروف، فوجد نفسه يواجه أعاصيرَ من الصعاب، فطلّقَ زوجَته جوزافين، لتعيش هي وابنها في الفلبين، حيث الفقر المدقع والعوز، إلى أن كبر عيسى ووصل سنَّ الثامنة

عشر، ليعودَ إلى الكويت للقاء عائلته الثرية، وذلك بعد وفاة أبيه في غزو العراق للكويت، حاملا عيسى ملامحَهُ الفلبينية للعائلة الكويتية.

ما فعله الكاتبُ السنعوسي من تجسيد أفكاره الرائعة التي خدعَ فيها القارئ منذ الصفحة الأولى من الرواية، فقد أوهمَ القارئَ بواقعيةِ أحداثِها ومدى صدقِ شخصياتها، فالذي كتبَ أحداث الرواية هو هوزيه الفلبيني وترجمها للعربية صديقه الفلبيني الذي كان يجيد اللغة العربية، فقد أخْلَى السنعوسي مسؤوليته ما جاء في الرواية.

انتقد السنعوسي المجتمع الكويتي بسلبياته الكثيرة، من حياة الطبقات الاجتماعية التي تحياها العائلات الكويتية داخل الكويت، كما أظهر الكاتب أن الدينَ ليس كما نفهمُه؛ لأنّ الدينَ لا يفرِّقُ بين الناس، فلا يوجد تمييزٌ في العرق واللون والجنس، مجسدًا ما جاء في القرآن الكريم : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات، الآية 13) وما جاء في خطبةِ الوداعِ عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قال:(يا أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا عجمي على عربي، و لا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى، "إن أكرمكم عند الله أتقاكم"، ألا هل بلغت ؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: فيبلغ الشاهد الغائب) (الألباني ,2002صفحة1069) فجميع الديانات السماوية كانت أو الوضعية تنبذ هذا التمييز العنصري.

فالكاتبُ تقصّدّ وضعَ اسمينِ، لهما دلالةٌ كبيرةٌ وليسا مجردَ صدفةٍ، فعيسى مرتبطٌ بنبينا عيسى عليه الصلاة والسلام، تشبيها له، حيث إنّ عيسى راشد الطاروف لم يرَ والدَهُ الذي أحبّه كثيرا مما سمعَهُ من أمّه جوزافين عن أبيه، والاسمُ الثاني هوزيه فهو مأخوذٌ من اسم البطل القومي الفلبيني هوزيه ريزال الذي يتصفُ بالتأملِ والمثابرةِ ومقاومةِ الاستعمارِ.

تتجلّى أفكارُ الكاتبِ كونه جعل من نفسه مصلحًا اجتماعيًا، أرادَ أن يزيحَ عن مجتمعه بعضَ السلبيات التي لا تتناسبُ مع شعبٍ عريقٍ يؤمنُ بالديانةِ الإسلاميةِ السمحةِ، فيلاحظُ أنّ الأديبَ يعقدُ مقارنةً بين مجتمعين عاشَ بطلُ روايتِهِ فيهما، وهو مجتمعُ الفلبين ومجتمعُ الكويت، فكلُّ الأحداثِ السلبيةِ التي حدثتْ في الفلبين سببُهُ الفقرُ المدقعُ الذي يجعلُ من الآباء يتخلون عن أبنائهم في سبيلِ لقمةِ العيشِ، بل وصلَ حالُ بعضِهم أن باعَ عرضَ بناته؛ ليجبرهن عن العمل داخل الفلبين وخارجها؛ ليحصلَ على المال، أمَّا ما حدثَ في المجتمع الكويتي من سلبيات فسببُهُ راجعٌ إلى الترفِ والغنى والثراءِ الفاحشِ، حيث المراكزُ الاجتماعيةُ العاليةُ التي من أجل الحفاظ عليها كانت سببًا وجيهًا من السيدة

غنيمة في التخلّي حتى عن آخر رجل في العائلة، فقد انتهى نسل عائلة الطاروف من الأولاد الذكور، حيث تكتفي(غنيمة) بأنْ يتمَّ ذكرها باسم عائلة منقرضة، فالمركزُ الاجتماعيّ عند الكويتيين عامة وغنيمة بصفة خاصة أكثرُ أهميةً من استمرار نسلِ العائلة من أن يحملَ اسم عائلة ابن ذي ملامح فلبينية، والذي لا مراءَ فيه لو كان الابنُ ذا ملامح أوروبيةٍ أو عربيةٍ لبنانيةٍ حتّى وإن لم يكن ابنًا شرعيًا لقبلوه ابنًا يحملُ اسمَ عائلة الطاروف؛ لأنّ هذه الملامحَ الآسيويةَ تمثّلُ الخدمَ والعمالَ في دول الخليج، فابنٌ فلبينيٌّ شرعيٌّ غيرُ مقبول البتة، بل مخزٍ عند عائلة الطاروف.

وما حدثَ مع عيسى هوزيه حدث أيضًا مع عمّته هند التي لم تستطعِ الدفاعَ عن حبِّها من غسّان البدوني، حيث تبدو العائلة عند هند أهمَّ وأجلَّ من الحبِّ، فوضعتْ حدّا لعاطفتها، وفضّلتْ عدم إنزالِ العائلةِ من مركزها الاجتماعي، فالمجتمعُ يعاني من تكتلِ وجودِ الطبقاتِ الاجتماعيةِ. كلُّ هذا وغيره نجدُ الكاتبَ يدافعُ عن الأقليات، وينبذُ الحياةَ الطبقيةَ التي تسيطرُ على مجتمعِهِ.

لم يبحثْ هوزيه(عيسى) عن المالِ ولم يأتِ من الفلبين إلى الكويت الدولة الثرية؛ كي يتحصّلَ على تركةِ أبيه، وإنما كان يبحث عن الانتماء إلى عائلةٍ عربيةٍ مسلمةٍ عائلةِ أبيه، فهو ابنُهم الشرعي لم يكن ابنَ فراشٍ وزنا، بل ولادة ناتجة عن زواج موثق في الدوائر والمحاكم الكويتية، فرحلة البحث لدى هوزيه لم تكن عن الانتماء إلى العائلة فقط، بل البحث عن الانتماء الديني والوطني، فهو يعيش حالة مضطربة في جميع أحواله، اسمه عيسى وملامحه فلبينية، وأبوه رجل مسلم ولا يعرف عن الإسلام شيئا، وأمه جوزافين نصرانية، والفلبين تؤمن بالديانة الوضعية البوذية، ففي الفلبين دخل المساجد، والكنائس، ومعابد بوذا، يبحث عن إله يتعبده، إله خالق الكون بما فيه من بشر وسماوات وأرض و... حتّى اعتنقَ الإسلامَ أخيرًا في الكويت بعد أنْ اقتنعَ بأنَّ اللهَ واحدٌ لا شريكَ له.

كما وضع الكاتبُ يده على الجرح عندما ركّزَ على حقوقِ الأبناء؛ ولأنّ الأطفالَ يتأثرون بخبرات والديهم، فيتعلمون منهم الحبَّ والكرهَ، فإنَّ آيدا التي كان لها ماضيًا عنيفًا ومخزيًا يحملُ لها الكثيرَ من الآلام، فأبوها منيدوزا فرض عليها أن تعيشَ الدعارةَ منذ صغرها، لتجلبَ له المالَ، فقد أورثتِ ابنتها ميرلا صورة مشوّهة وقاسية وعنيفة نحو جنس الرجال، ودون أن تشعر ميرلا وجدت نفسها تحتقر الرجال، فهي لا تعرف إلا أبا متوحشا كانت نتاج وحشيته، هذا الأمر جعل ميرلا خلال فترة مراهقتها وهي الفترة التي يتعرف فيها النشءُ على جنسه وميوله ورغباته، مالتْ ميرلا إلى نفس جنسها

وأصبحت فتاةً مثليةً، **وهنا** تظهرُ شخصيةُ الكاتبِ في معالجة هذه الصدمة، فقد جعل هوزيه يقتربُ من ابنةِ خالته ميرلا، لكي يغيّرَ نظرَتَهَا الموحشةَ والمشوّشةَ اتجاه الرجال، فَعَامَلَ ابنةَ خالتِهِ معاملةً حسنةً بأسلوبه الرائع، حتّى جعلها تعودُ تدريجيًا وتتراجعُ عن ميلها الشذوذي.

يدركُ القارئُ عند قراءته لرواية ساق البامبو أنّ الكاتبَ يوجهُ الانتقاداتِ لمجتمعه التي عمّتْ وانتشرت فيه عاداتٌ وتقاليدُ سلبيةٌ، فالقارئُ يدرك حينها أن الكاتبَ يريد قولَ أشياءٍ كثيرةٍ، لكن سلطة المجتمع جعلته يكتفي بالتلميح وأقصى ما استطاعه هو توجيه انتقادات خفيفة لبعض الصبية الذين لا يراعون سلامة الآخرين في بعض سلوكهم الصبياني يقول عن هذا السلوك : (يقفون بمحاذاة الشارع ...يحملون حجارة في أيديهم متحفزين ينتظرون مرور الحافلات ليرشقوها بحجارتهم تمر الحافلات يقف بعضها ويواصل بعضها الآخر... ولا ينصرف الصبية قبل أن يصيب أحدهم الهدف تتناثر شظايا زجاج الحافلة، ثم يطلقون سيقانهم للرياح سالكين السكك الضيقة المظلمة) (السنعوسي ,2012صفحة306) .

ويصبُّ الكاتبُ غيضَهُ وانتقادَهُ لرجال الشرطة وطريقة معاملاتهم، فعندما أُوقِفَ عيسى وطالب الشرطيُّ منه إخراجَ بطاقة هويته، يقول: (دَسَسْتُ كفّي في جيبِ البنطلون الخلفي أخرجتُ المحفظةَ، سحبَها من يدي قبل أن أخرجَ له البطاقةَ، وقفتُ من دون حراكٍ أراقبه، أخذ يفتّشُ فيها، سحبَ الدنانيرَ العشرة، ووضعها في جيبه، رمى المحفظةَ في وجهي دون أن يرى بطاقة الهوية، ركب سيارتَهُ وانطلق بسرعة، وقفت في حيرة من أمري، والمحفظة بين قدمي) (السنعوسي ,2012صفحة98) ، ولسان حاله يقول إن كان الشرطي سارقًا، فماذا يفعل اللصوص إذن.

والحوارُ الذي حدث بين عيسى وأحد أصدقائه الكويتيين عن الشُّققِ المأجورة التي تثير الشبهات لدى ساكنيها، فقال له عيسى : (هل تعني أنكم تخشون الشرطةَ؟ فأجاب صديقُه بحدّة (الشرطةُ لا تخيفُ أحدًا... نحن نخافُ كلامَ الناسِ) (السنعوسي ,2012صفحة346) .

وجاء صوتُ النقدِ من أحد المواطنين السكارى الساخطين المتذمرين من المجتمع (يتمادى بسخريته على الناس في الكويت... يعب المتذمر ما تبقى من كأسه برشفة واحدة يتحدث عن الكويتيين بغضب ... ينعتهم بصفات مزعجة) (السنعوسي ,2012صفحة309) .

المبحث الثاني ـ قضية البدون* (أزمة هوية) :

بكلّ شجاعةٍ تناولَ الكاتبُ قضيةَ البدون التي لا شكَّ أنها تقضُّ المجتمعَ الخليجيّ لاسيّما المجتمعُ الكويتيُّ، فهي ذاتُ أبعادٍ سياسيةٍ واجتماعيةٍ، فالبدونُ شريحةٌ وجدتْ نفسَها ضحيةً لمأزقٍ إداري سياسي إنساني، وضحية لآبائهم ـ رُبّما ـ أو لظروف مرحلة تاريخية لا تزالُ مفتوحةً على الاحتمالات. وجدَ البدونُ أنفسهم مهمشين يعيشون على هامشِ مجتمع يشكّكُ في استحقاقاتهم المدنية، فقد كان السنعوسي صوتَ من لا صوتَ له مدافعًا عن هذه الأقلية التي يفقدها المجتمع انتماءَها الوطني وحسّهم القومي، تمثلتْ أقليةُ البدون في رواية ساق البامبو في شخصية غسّان الذي كان صديقا لراشد ابن عائلة الطاروف، فغسّان كان له دورٌ بارزٌ في الرواية فهو من الشخصيات الأساسية التي اعتمدتْ عليها الروايةُ، فقد أحبتْ وعشقتْ هذه الشخصية(غسّان) هند ابنة الطاروف، وكان حبًا نقيا متبادلا بين الطرفين؛ ولأنّ غسّانا من البدون لا يرتقي أن يصاهرَ عائلةَ الطاروف التي ترفضه خطيبًا لابنتهم، وذلك من أجل الحفاظِ على سمعة العائلة أصيلة العرق، نقية الدم، ذات المركز والمكانة بين عائلات المجتمع الكويتي الراقية.

لعبتْ شخصيةُ غسانٍ دورًا مهمًا في الرواية فهو الذي جَلَبَ عيسى من الفلبين بعد أن أتمَّ عيسى سن القانونية الثامنة عشرة، وهذه كانت وصية راشد الطاروف لصديقه ورفيق حياته عندما أراد الالتحاق بالجيش لصد الغزو العراقي، فوقع في الأسر، ثم قُتِلَ، فما كان على غسان إلا أن نفّذ وصية صديقه، فعلمت سيدة بيت الطاروف غنيمة بأن من جلب هذا النحس(عيسى) هو غسّان الذي رفضته صهرًا لها، وبذاك يزدادُ موقف غسّان اتجاه عائلة الطاروف سوءًا.

يبدو لنا الكاتبُ بطرحه قضية البدون من خلال شخصياتٍ طيّبةٍ تحبُّ الخيرَ للجميع، وتنتمي لهذا الوطن الذي عاشتْ فيه وترعرعتْ، فالبدونُ كأيّ شخصيةٍ كويتيةٍ حرّةٍ لا تقبلُ الضيمَ على وطنها، بل تقف مدافعةً عن هذه الأرض التي نشأت فيها، فتقدم الرخيص والغالي في سبيله.

حقيقة تناولَ الكاتبُ هذه القضيةَ بكلِّ شفافيةٍ؛ لكي يبطلَ عنهم عدةَ شبهاتٍ واتهاماتٍ من قبل المجتمع الكويتي، وقد اعتبر أنّ أحدَ العوامل التي أدتْ إلى صعوبة موقف البدون في الكويت هو توجيه اتهامات لهم بعدم الولاء بسبب مساندة بعضهم للعراق خلال الغزو العراقي للكويت عام 1990م.

والقارئُ المتمعنُ لأحداث الرواية يجدُ نفسه يقارنُ بين شخصيتين أساسيتين في الرواية وهما شخصية غسّان من البدون، وشخصية عيسى ذي الملامح الفلبينية الكويتي الجنسية، فكلاهما لا يجدُ قبولا في المجتمع، حيث يرفضهما المجتمع رفضا تامًا، بل

يعتبرهما من طبقة ثانية أدنى من طبقتهم، يقول الكاتبُ على لسان بطله هوسيه أو عيسى حسب النطق بعض اللغات : (اكتشفتُ أناسًا أغربَ من قبائل الأمازون أو القبائل الأفريقية أناسًا ينتمون إلى مكان لا ينتمون إليه، ألححتُ بالأسئلة على غسّان، كي أعرفَ منه سرَّ عدم قدرته على السفر، هو بدون هو بلا جنسية، يولد أبواه في الكويت، ويولَدُ هو الآخر فيها لا يعرف أرضًا سواها، يعمل في سلكها العسكري، ويدافع عنها دون أن يكونَ له حق في حمل جنسيتها). (السنعوسي, 2012صفحة192)

وهذه رسالةٌ واضحةٌ من الكاتب اتجاه مجتمعه يريدُ إيصالَها موجهةً إلى الحكومة وإلى المجتمع، فهي روايةٌ تتم قراءتها بعدة لغات، فهناك من البدون من ضحّى بحياته، وهناك من رفع اسم الكويت إبداعيًا، والذين استشهدوا في موكب الأمير الراحل جابر أحمد الصباح سنة 1985م، فقدّم البدون حياتهم في سبيل نجاة الأمير.

ويقول الكاتبُ على لسان هوسيه أيضا :(شيءٌ معقّدٌ ما فهمتُهُ في بلاد أبي كل طبقةٍ اجتماعيةٍ تبحثُ عن طبقة أدنى تمتطيها، وإن اضْطرتْ لخلقها، تعلو فوق أكتافِها تحتقرها وتحققُ بواسطتها من الضغط الذي تسببه الطبقة الأعلى فوق أكتافها هي الأخرى). (السنعوسي, 2012صفحة136)

صورة واقعية للمجتمع الكويتي حيث تسيطر عليه روح القبيلة، التي تتحكم في المجتمع وليس القانون.

ما الذي يريدُه البدون من المجتمع؟ يطرح الكاتبُ هذا السؤالَ ويجيب عنه بعدّةِ أجوبةٍ، فلا يريد البدون منا إلا حلا إنسانيًا عادلا شاملا لمعاناتهم، يريدون منا تأمين حياة كريمة لأبنائهم في بلد خليجي غني بالموارد الطبيعية، تصل خيراته للقاصي والداني، فكلهم (البدون) من غير استثناء محرومون من حقوق الإنسان الطبيعية، فالذي يتحصّل على الشهادة الجامعية لا يستطيع الحصول على وظيفة؛ بسبب أنه من الأقليات.

فالبدون جزءٌ من نسيج المجتمع شاءتِ الحكوماتُ أو لم تشأْ، فكيف لشعبٍ واحدٍ تربطُه عدةُ وشائجَ اجتماعيةٍ يرفض بعضُهم البعضَ الآخرَ؟!، فتعدادُ البدون وصل الآنَ في المجتمع الكويتي إلى مئة وعشرين ألفا من السكان، بينما تعدادُ دولة الكويت يصل إلى أربع مليون وأربع مئة ألف، فعدد مثل هذا حكومته تعجز أن تتصرف معهم، هذا أمرٌ خطيرٌ، فالقضيةُ تتفاقم كلما تأخرَ الحل، ككرة الثلج التي تكبر كلما تدحرجت؛ ولأن سعي وتحرك الحكومة اتجاه هذه القضية كتحركِ السلحفاةِ لا يجدي نفعًا.

ففي كثير من محطات الرواية نرى السنعوسي يعالج حقوق البدون في المجتمع الكويتي، حيث كانت هاجسه الأول؛ لأنها بوابة طبيعية لكل إنسان، فهو يتمنى بأقصى سرعة أن تُعطى لهم حقوقهم كاملة.

والكاتب أشار إلى أنَّ البدون قاوموا بشراسة الغزو العراقي عام 1990م، وذادوا عن انتمائهم المؤجل، فمنهم من استشهد، ومنهم من تعرض للعاهة المزمنة، ومنهم من نجا، متلمظا نشوة الانتصار الممزوج بمرارة الانتظار، انتظار الاعتراف به ومنحه الهوية الكويتية، ولكن خانته الوعود السياسية في النهاية، وتظلُّ الإشكاليةُ مطروحةً.

ولم تزلْ قضيةُ البدون تؤرق مضجعَهُ، وتلقي بظلالها على المشهد السياسي، وبكل صدقٍ قد أفلحَ الكاتبُ إلى حدٍّ بعيدٍ في تدوين قضيته ومنحها معنى مؤثرا؛ لينصفَ شريحةَ الأقلياتِ.

والذي يتمعنُ في قراءة الرواية ويهتمُ بتفاصيلها يجدُ الكاتبُ يصفُ هذه القضية بوصمةِ عارٍ للمجتمع الكويتي، فكيف لدولة في القرن الواحد والعشرين تصنف مواطنيها من الدرجة الثانية، أو مواطنون ليس لديهم جوازات سفر تثبت أنهم عرب كويتيون؟!.

المبحث الثالث ـ حقوق العمال والخدم :

قبل الحديثِ عن رأي الكاتبِ عن حقوق الخدم والعمال التي أحدثها في روايته، فإنّه لزامٌ علينا أنَ نطرحَ سؤالا مباشرا وهو: هل كان زواج راشد الطاروف من جوزافين الفلبينية متكافئًا؟ لا يبدو لنا ذلك؛ نظرًا لاختلاف أشياء كثيرة بين الزوجين، وإن كان الزواج جائزا شرعيا إلا أنه غيرُ متكافئ، فهناك فوارق بينهما تتمثل في الغنى والفقر وابن عائلة ذات طبقة عالية في المجتمع الكويتي وبين جوزافين التي تعمل خادمة في بيتهم، فكلُّ ما حصلَ من مشكلات وعقد في الرواية سببه هذا الزواج الغير المتكافئ.

ومن المحاورِ الأساسيةِ التي ترتكزُ عليها رواية ساق البامبو معاملة الخدم، ونتيجة لسوءِ المعاملة ونظرة ربِّ العمل إلى الخدم نظرة فوقية، وشعور الخدم بالظلم وعدم العدالة يتولد في عقول الخدم الباطن حب الانتقام كما أشار علماء الاجتماع إلى ذلك، لذا قد تلجأ الخادمة أو المربية إلى استخدام أسلوب التهديد أو الضرب أو قسوة في معاملة الطفل أو حرمانه من أشياء يحبها أو تنويم الطفل باستخدام الدواء وغير ذلك في غياب الوالدين عن المنزل، وذلك كي تتفرغ لأعمالها أو تتحدث مع صديقاتها بالتلفون أو تلتقي بحبيبها.

ونرى الكاتبَ يقف وقفة ضد، فبعض أفراد مجتمعه الذين يستعبدون الخدم والعمال، فبعد الطفرةِ النفطيةِ وغنى الأسر الكويتية انعكس ذلك على أمور كثيرة منها كبر حجم ومساحة المنزل مما يعني الاستعانة بالخدم في طبخ الطعام ونظافة البيت وترتيب الأثاث

والعناية بحديقة المنزل وغسل السيارات ورعاية الأبناء وكبار السن. وقد أقرَّ الكاتب بأن هناك بعض الأسر الكويتية جلبت او استقدمت الخدم بهدف حب التظاهر والتقليد والتباهي الاجتماعي والتفاخر، واستخدمت الخدم لقيام ربة الأسرة بالزيارات الخارجية والسفر للخارج، ومن الأسر أيضا تستعين بالخدم من باب الترفيه والغنى، والسنعوسي يرجعُ هذا الظلم الذي وقع على الخدمِ من قبل بعضِ الأسرِ الكويتية للنظرة المتعالية والتكبر لدى بعض أفراد الأسر، وهذه النظرةُ الفوقية بمعنى أنّهم الأفضلُ والأحسنُ من الآخرين وعلى الآخرين خدمتهم.

فهذه النظرةُ تكرّس استقدام الخدم وتسخرهم لخدمة الأغنياء. فتشتكي معظمُ الخادمات والعاملات في المنازل من سوء المعاملة وانتهاك حقوقهن، وذلك حسب الدراسات التي تناولت المشكلات التي تعاني منها الخدم، بل ويشتكي أيضا هؤلاء الخدم من بعض أصحاب مكاتب استقدام الخدم حيث إنهم يعلمون بما يعانيه هؤلاء الخدم إلا أنّهم لا يتحركون أو يفعلون شيئاَ، وأكثر الجرائم التي تقع بحقِّ هؤلاء الخدم في المنازل دون علم مراكز الشرطة أو رجال الصحافة، إلى جانب خوف الخادمة من الإبلاغ، بل وكيف تصل إلى الشرطة وهي لا حول لها ولا قوة وسط تهديد لها وحرمانها من الراتب وحجز جوازها؟!. وركّز الكاتب على أهم المشكلات التي يعاني منها الخدم وهي: الضرب، وعدم مراعاة إنسانية الخدم، والتحرش الجنسي، وهتك عرض، وعدم دفع الراتب الشهري، أو تأخير دفع الراتب، وقلة وقت الراحة والنوم، وعدم التأقلم مع عادات البلاد الخليجية وصعوبة تعلم اللغة العربية. كما أن الكاتبَ لم يخفينا سرًا أنّ بعض الخادمات قد يتمُّ التحرش بهن من قبل الرجال أصحاب البيوت، ومن قبل رجال الشرطة في المراكز. (السنعوسي ,2012صفحة316) وقد يؤدي بالخادمة أن تنتحرَ بسبب سوءِ المعاملة القاسية والاغتصاب والابتزاز والتعذيب الذي يقع منهم اتجاههن.

لنقرأ مثلا هذا الحوار الذي وقع بين الأم غنيمة وراشد وزوجته جوزافين بعد اكتشاف وظهور حملها، فانظر كيف يتم الحوار بين السيدة غنيمة والخادمة جوزافين التي وصفتها بأقذع العبارات وبأنّها سافلةٌ، يقول راشدٌ: (ارتكبتُ خطأً بصنع هذا الجنين، ولا أريد أن أرتكبَ خطأً أكبر في التخلّي عنه... تجمعتْ عمّاتي الثلاث عند باب المطبخ المشرع بعد أن تعالتِ الأصواتُ، لم يجرؤا على الاقترابَ أكثر، قالت غنيمة: جوازفين السافلة تسافرُ في الغد) (السنعوسي ,2012صفحة43)

وقد وجّه السنعوسي الكاتبُ الانتقادَ لرجال الأمنِ وعلى رأسهم الشرطة الذين يبتزون البناتِ الأجنبيات اللواتي لا يحملنَ أوراقَ الإقامةِ، تقول إحدى الفتيات:(لا أمكث عادةً

في الحجز طويلا، إنْ كان الشرطيُّ المسؤولُ في الفترةِ الصباحيةِ شريفًا، لن يكونَ زميلُهُ في أغلبِ الأحوالِ كذلك في الفترةِ المسائيةِ، وإن مضى اليومُ من دون أن يراودَها فيه أحدُهم عن نفسها لقاءَ إطلاقِ سراحِها، فهذا لن يستمرَّ في اليوم التالي... فكثيرًا ما دفعتُ ثمنَ إقامتي بصورةٍ غيرِ شرعيةٍ إمّا في إحدى غرفِ مراكزِ الشرطةِ الفارغةِ، أو في سيارةِ أحدِهم، أو في شُقّةٍ خُصصتْ لممارسةِ مثل هذه الأفعالِ...)

وهناك مشهد يرصد فيه الكاتبُ(السنعوسي) الشخصية على سجيتها وطبيعتها، فقوةُ جبروتِ الأمِّ على الخدم وإعلاء صوتها عليهم واتهامهم على إفشاء أسرار العائلة، وأنّهم غيرُ ملتزمين بالنظافة. كما أشار الكاتبُ أنّ بعضَ العائلات تكلِّفُ الخدم والعمال وسائقي السيارات بأعمال فوق قدرة طاقتهم، فمن حق الخادم أو العامل أنْ يُكلّفَ بالأعمال على قدر طاقته وضمن ساعات العمل، التي تقررها قوانين العمل، إذ لا يكلفُ اللهُ نفسًا إلا وسعها، فلا يجوز لربةِ البيتِ أن تشقَّ عليهم. كما حثَّ الكاتبُ في روايته هذه بحق الوفاء بالأجرِ للخدم والعمال ، والأجرُ حقٌ أوجبه الإسلامُ بالمعروفِ، والمبدأ العام في الإسلام أن الجزاء على قدر العمل فإذا أدى الأجير عمله استحق أجره وافيا، فإذا قصّر ربُّ العملِ في ذلك فعلى الدولةِ أنْ تحميه من العدوانِ عليه أو الإحجافِ به؛ لأنّ هذا من وظيفتها.

الخاتمة

ـ وفي الحقيقةِ جاءتْ هذه الروايةُ ناضجةً عميقةً، فيها من الآراءِ والسجالِ والتحاليلِ ما لا يدعُ شكّاً في قدرة الكاتبِ على تفهّمِهِ للواقعِ المعاشِ وللسلبياتِ المنتشرةِ في مجتمعِهِ، وقدرته على تحليلها والمساهمة في إيجاد حلول بديلة وتفعيلها في المجتمع، وأسفرت نتائج البحث عن الآتي:

ـ أبدعَ الكاتبُ عندما طافَ بنا في المجتمع الفلبيني وِفْقَ عاداتِهِ وتقاليدِهِ وفقره ودياناته المتعددة، وطغيان الخرافة التي سادتِ المجتمع، كنيسة المسيح، معبد البوذي، مسجد المسلم، وحيث الفقرُ المدقع الذي يعيشه الفلبيني، الأمر الذي جعل الأبُ يبيحُ عرضَ بناتِه، والسماح لهن بالخدمة في بلاد بعيدة عن الأهل والوطن، من أجل لقمة العيش، فالإنسانُ المهدرةُ كرامتُهُ في مجتمعه يفقدُ القدرةَ على الإحساس بذاته، يتحولُ إلى كائنٍ جاهلٍ لمقوماتِهِ وقدراته ولطبيعته التي جُبِلَ عليها.

ـ البعدُ القوميّ والوطنيّ لدى السنعوسي في روايته ساق البامبو هو امتدادٌ للبعدِ الاجتماعي، فكثيرًا ما نراه في روايته هذه يركزُ على فقدان أبناءِ الوطنِ في حربهم ضد العراق، فقد ردَّدَ كثيرًا عباراتٍ مشحونةً بالألم والحسرة على أبناءِ وطنه الكويت، وهم

يعانون الأسرَ وفقدانَ الأطرافِ، بل والموت في أحيان كثيرة، وكأنّي بالرواية تؤرخُ لحرب الخليج التي حدثت أواخر القرن الماضي، ففي الرواية يختفي ألمُ الشخصِ الفردِ ويتجلّى بوضوحٍ ألمُ الأمةِ بتاريخها وثقافتها وحضارتها ومصيرها الحاضر والآتي، فالسنعوسي الكاتبُ كباقي كتّاب الكويتيين تحتلُّ قضيةُ احتلالِ بلدِهِ المقامَ الأولَ من اهتمامه، وقد خصّصَ لها في روايته مساحةً كبيرةً، فلم يقتصرِ السنعوسي في روايته لقضية الاحتلالِ في بلده والمعاناة الاجتماعية للأفراد والأسرة والدولة، بل شدّدَ على جانبٍ مميزٍ وهو القدرة على التجددِ، والقدرة على المقاومة، ودفْع أشكال الانهيار وهدر الكرامة، فروحُ المقاومةِ وردُّ الفعل في البعد القومي والوطني في ساق البامبو تقويان صلبَ الإنسانِ وتحضَّانه على الاستمرار والإصرار على الوجود وتحقيق الذات. وهذا الغزو غيّرَ الكثيرَ من أنماطِ الحياة وأنظمة العيش وقلب المجتمع رأسًا على عقبٍ، فالذي ينظر إلى المجتمع الكويتي ما قبل غزو العراق لهم، يجدُ الاختلافَ كلَّهُ بعد الاحتلال، فالمرأةُ ليستْ هي المرأةُ ما قبل الاحتلال، وانفتاح المجتمع عن الغرب، وحيث المشاركة في قرارات مصيرية للدولة.

ـ ولعلَّ التفكيرَ في وضعِ حدٍّ موضوعي ونهائي للرقي بالمجتمع وفرض حلولٍ للسلبيات التي لا تتناسبُ مع ديننا الإسلامي وفي ظلِّ متغيراتِ الوضع الحالي يبدو ضربًا من الخيال، ونوعًا من المستحيل، إذ كيف للكتّاب والأدباءِ أنْ يساهموا في الكشفِ عن الظواهر والمفاسد الاجتماعية التي توجدُ في واقع المجتمع والتي يصعبُ علاجَهَا ما لم يجدوا الحكوماتِ تقفُ معهم، كمَا أنّهم محتاجون لشعبٍ واعٍ يدركُ المخاطرَ التي قد تتغلبُ على نسيجِهِ الاجتماعيّ؟

ـ تبدو لنا الرؤية النافذة والعميقة في رواية ساق البامبو تجعلُ فضاءَ النصِّ الإبداعيّ فضاءً مشحونًا بالمأساةِ الإنسانيةِ، وبالحسِّ المفجعِ. حيث وصفَ الكاتبُ السنعوسي شخوصَهُ باستمرارٍ من الخارج بكلِّ دقةٍ وذكاءٍ من نحولٍ، وسُقْمٍ، وسُمْنٍ وطولٍ... ويصفُها من الداخلِ كالدونيةِ، والكرهِ، والحقدِ، والكرمِ، والمروءةِ والحبِّ...

ـ عَالَجَ الكاتبُ في هذه الرواية مشكلةَ الأبناءِ الذين يولدون من أبوين مختلفي الديانة والعرق، وقد أجادَ حين أشركَنَا في مشكلةِ بطلِ الروايةِ عيسى حين جعلنا نعيشُ معه همومَهَ وعذاباتِهِ وضياعَهُ... حيث جعلنا نشفقُ على كلِّ ولدٍ جاء من أبوين مختلفي الديانة والجنس والعرق لاسيّما حين قال عيسى: (أنا أبحثُ عن اسمٍ عن دينٍ عن وطنٍ) فأيُّ عذابٍ يعيشُهُ هذا الذي لا يعرفُ لنفسِهِ اسمًا ولا دينًا ولا وطنًا. وأيُّ حيرةٍ هذه التي يتوهُ فيها الإنسانُ عن نفسِهِ نصفُهُ يحاورُ نصفَهُ الآخرَ دون أن يعرفَ لمن ينتمي ...أو لمن ينحاز؟.

المصادر والمراجع

ـ القرآن الكريم.

ـ حمداوي، جميل، سنة النشر 1997م، *السيموطيقا والعنونة*، الكويت، منشورات عالم الفكر.

ـ ديب، وئام رشيد، مذكرة لنيل شهادة ماجستير، جامعة غزة 2010م، تقانات السرد في الخطاب الروائي العربي في فلسطين من عام 1994، 2006م.

ـ دور، إليزابيث، ترجمة: الدكتور محمد إبراهيم الشوش، سنة النشر 1961م، *الشعر كيف نفهمه ونتذوقه*، بيروت، لبنان، منشورات مكتبة منيمنه، مطبعة عيتاني الجديدة.

ـ الطاهر، علي جواد، سنة النشر 1979م، *مقدمة في النقد الأدبي*، بيروت، لبنان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

ـ يسين، السيد، سنة النشر 1970م، *التحليل الاجتماعي للأدب*، القاهرة مصر، الطبعة الثالثة، مكتبة مدبولي.

ـ القيسي، نوري، سنة النشر 1979م، *الأديب والالتزام*، بغداد العراق، مطبعة المعارف.

ـ السنعوسي، سعود، سنة النشر 2012م، *رواية ساق البامبو*، بيروت لبنان، الدار العربية للعلوم ناشرون.

ـ الألباني، محمد ناصر الدين، سنة النشر 2002م، *سلسلة الأحاديث الصحيحة*، الرياض، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع.

ـ القواسمة، د. محمد عبدالله، السبت 20، شعبان 1442هـ، الموافق 3 نيسان 2012م، صحفية الدستور الأردنية.

ـ ياكبسون، رومان، ترجمة: محمد الولي، ومبارك حنون، سنة النشر1988م، *قضايا الشعرية*، الدار البيضاء ـ المغرب، دار توبقال للنشر.

ـ تودوروف، تزفيتان، ترجمة: الدكتور سامي سويدان، سنة النشر1986م، *نقد النقد*، بيروت، لبنان، منشورات مركز الإنماء القومي.